



ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne

AnIsl 22 (1987), p. 1-9

Muḥammad Naṣr Muḥannā

-al hū-kataba - mulūk-al Ādab *آداب الملوك - كتبه المملوك برد بك - دراسة وتحقيق وتعليق*
mamlūk Bard Bak - dirasa wa taḥqīq wa ta'liq.

Conditions d'utilisation

L'utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l'éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l'éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

9782724711448	<i>Athribis XI</i>	Marcus Müller (éd.)
9782724711615	<i>Le temple de Dendara X. Les chapelles osiriennes</i>	Sylvie Cauville, Oussama Bassiouni, Matjaž Kačnik, Bernard Lenthéric
9782724711707	????? ?????????? ?????????? ??? ? ????????	Omar Jamal Mohamed Ali, Ali al-Sayyid Abdelatif
9782724711462	<i>La tombe et le Sab?l oubliés</i>	Georges Castel, Maha Meebed-Castel, Hamza Abdelaziz Badr
9782724710588	<i>Les inscriptions rupestres du Ouadi Hammamat I</i>	Vincent Morel
9782724711523	<i>Bulletin de liaison de la céramique égyptienne 34</i>	Sylvie Marchand (éd.)
9782724711400	<i>Islam and Fraternity: Impact and Prospects of the Abu Dhabi Declaration</i>	Emmanuel Pisani (éd.), Michel Younès (éd.), Alessandro Ferrari (éd.)
9782724710922	<i>Athribis X</i>	Sandra Lippert

خاتمته :

أقام الاسلام دولة منذ البداية ، كما أقام نظاما ، وأنت نصوصه وأحكامه بتنظيم لشئون الدين والدنيا . والتراث الاسلامي سيظل يستأثر باهتمام الباحثين ، فهو جزء من عبقرية الامة الاسلامية ، وأوقات الضعف التي أصابت هذه الأمة ، - والجدل المثار حول العلاقة بين قومية الأمة والاسلام - لا يعنى هذا أن الاسلام عربي فقط ، فالاسلام أعم وأشمل ، ولم يأت للعرب فقط ، فالعرب أقلية بين المسلمين ، ولكنهم أكبر أقلية بينهم ، وهناك علاقة خاصة بين الاسلام والعروبة كاللغة والتراث الفكرى .

والنتائج التي استخلصتها من دراسة هذا المخطوط القيم ، من وجهة نظري ، تكمن في أن عصر المماليك لا يعتبر شرأ كله بالرغم من أن المماليك غرباء على حضارة المنطقة .

ومن هنا فان إخراج هذا المصدر الثمين هو انجاز لا بأس به ، فهو فضلا عن اعتباره النسخة الوحيدة ، فهي أيضا نسخة كاملة ، وواضح أن الناسخ كتبها على نظام الورقة ، وقد كتبت المخطوطة بخط عربي واضح ، وكان لطبيعة تخصص الناسخ - وهو من طبقة المستجدة الملكي الاشرفي - أثر واضح في ترتيبها .

ومن تحليل نص المخطوط يتضح أن مصر مرت بفترة كانت العقيدة الدينية وحدها هي الصلة بين الحاكم والمحكومين ، على حين أن الرابطة القومية كانت مبعث تناقض واختلاف بين الحاكمين من المماليك أنفسهم .

ومن منظور تاريخي ، فقد تم القضاء على الدولة المملوكية في يناير عام ١٥١٧ م وذلك بهزيمة طومان باي - الذي يتعرض مخطوطنا هنا لسلفه قنصوه الغورى - . وكان طومان باي بذلك آخر سلاطين المماليك الذي هزم على يد السلطان العثماني سليم الأول بدخوله القاهرة .

إن المؤلفات التاريخية التي ظهرت في نهاية العصر المملوكي مثل كتاب « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، وكتاب « بدائع الزهور في وقائع الدهور » لمحمد بن احمد بن اياس . . هذان الكتابان يميل أسلوبهما الى استخدام العامية المنثورة . وبالمثل نلاحظ ذلك في صياغة هذا المخطوط .

ومن الثابت أن تحقيق مثل هذه المخطوطات والوثائق وضبط أحداثها لتخرج في صورة صحيحة تليق بها وتحفظ مصادر التاريخ والفكر الاسلامي - يحتاج ذلك الى تعاون الباحثين بصرف النظر عن جنسياتهم باعتبار أن التراث الاسلامي هو تراث للانسانية كلها .

- فانه مسئول عن أفعالهم كما سئل عن فعل نفسه . قال الله تعالى : « وانذر عشيرتك الاقربين » . قال ازدشر : إذا كان الملك عاجزا عن صلاح خواصه ومنعهم عن الظلم فكيف يقدر على ردهم الى الصلاح . وليس شيء أهيب في قلوب العمال والرعية عن سهولة الحجاب . فإذا كان الملك سهل الحجاب لم يكن العمال يجوروا ، وضائق الرعايا من جور بعضهم على بعض ، ومن سهولة الحجاب . / واجلسك مكان عثمان ذي النورين ، وانه يطلب منك مثل حياته ، فاکرمه ، وانزلك مكانه على بن ابي طالب ، ويطلب منك مثل عمله وزهده ، وعدله . فقال : زدني . قال :
- [١-١٦] نعم . ان الله تعالى جعل لاعدائه نارا اي دارا تعرف بجهنم ، وانه قد جعلك بواب / تلك ، واعطاك ثلاثة اشياء : بيت المال ، والسيف ، والسوط ، وأمرک ان تمنع الناس من دخول النار بهذه الثلاثة . فمن حاك محتاجا ، ولا يمنعه من بيت المال ، ومن خالف امر الله ، فادبه بالسوط . ومن قتل نفسا بغير حق فاقتله بالسيف . فان لم تعمل ما أمرک به فانك تكون الرغيم لاهل النار / يكون للملك اطلاع على سائر الاعمال ولا يكون الملك غافلا ليكون الهيبة عن ناموس المملكة باقية ، وذلك لا يحصل الا بالتيقظ ليستريح من المهوم الحادثة من الغفلة . روي عن عمر بن الخطاب - رضی الله عنه - انه كتب الى عامله ابن ^(١) موسى الاشعري .
- [١٧-ب] / اما بعد . فان اسعد العمال من سعدت به رعيتته ، واشقاهم من شقيت به رعيتته . اياك والتبسط باموال المسلمين . فان رعيتك يقتدوا بك ، فانما مثلك مثل دابه ذات مرعى اخضر ؛ فاكلت وسمنت وكان سمنها هلاكها لانها عند سمنها تذبج وتؤكل . / وهذا كان دأب عمر بن الخطاب - رضی الله عنه - في كتابه الى عماله ، وكذلك سائر الخلفاء - رضی الله عنهم - وينبغي للملك ان يحب لقاء الصلحاء ، والزهاد ، والاتقياء ، ويحترم جنابهم ، ويعظم ثناءهم ، ويطلب منهم المواعظ كما كانت سائر الخلفاء تفعل . روي ان / شقيق البلخي مر على هارون الرشيد فقال : انت شقيق الزاهد . قال : أنا شقيق ولست بزاهد . فقال : اوصيني . فقال : ان الله تعالى اقعدك مكان الصدق ، وانه يطلب منك مثل صدقة ، وانه أعطاك موضع عمر الفاروق ، ويطلب من الفرق بين الحق والباطل / اللهم أمتنا على الحق ، وانت راضی ^(٢) عنا يا رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ وصلی الله على النبي الامي ؛ وعلى آله ، وصحبه وسلم .

(١) هكذا الأصل وصحتها «أبي موسى الاشعري» . - (٢) هكذا الأصل وصحتها «راض» .

/ وكل انسان يذكر بما يفعل ، وينسب الى ما كان يعمله ان كان خيرا فخييرا ، وان كان شرا [٦ - ب] فشرا . ويقال : ان الاسكندر ركب يوما في موكب مملكته فقال بعض مقدميه : ان الله أعطاك ملكا عظيما فلو انك تستكثر من النساء فتكثر اولادك فتذكر بهم بعدك . فقال الاسكندر : ليس ذكر الرجال بعدهم بذكر الاولاد ؛ ولكن بالحسن وعدل السنة ، ورجل غلب رجال الدنيا لا يجوز بغلب النساء .

/ للملك الاعتناء بأمور الدين فقد قالوا : الدين والمملك توأمان مثل اخوين ولدا في بطن واحد فيحبب [٧ - ب] الاسلام ولعزه ^(١) ، ويجتهد في إعادة السنة النبوية والسيرة المرضية ليُحمد عن ذلك طريقه ، ويُعظم في القلوب هيئته . ويجب ان يعلم ان صلاح الناس في حسن سيرة المملوك . قالت الحكماء : طباع الرعية تشبه طباع الملك .

/ قال محمد بن علي بن الفضل ^(٢) : ما كنت أعلم ان أمور الرعية تجري على عادة ملوكها حتى رأيت الناس في أيام الوليد اشتغلوا بعمارة الكروم والبساتين واهتموا ببناء الدور وعمارة القصور . ورأيتهم في زمن سليمان بن عبد العزيز قد اهتموا بكثرة الأكل والطعام حتى ان الرجل يسأل صاحبه أى لون اصطنعت وما الذي اكلت ، ورأيتهم في زمن عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - قد اشتغلوا بالعبادة وتفرغوا لقراءة القرآن ، وأعمال الخيرات ، وإعطاء الصدقات ، فينبغي له ان يوزع الأوقات فان الملوك القدماء قسموا النهار أربعة أقسام ؛ قسم لعبادة الله وطاعته ، وقسم للنظر في أمور المملكة وإنصاف المظلومين ، وقسم للجلوس مع العلماء والفضلاء وتدير الامور وسياسة الجمهور ، وقسم للراحة وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور والصيد واللعب .

/ وما أشبه ذلك ، ويقال ان بهرام وكور قسم نهاره قسمين وجعله نصفين . ففي النصف الاول [١٣ - ب] كان يقضي جوانج ^(٣) العالم ، وفي النصف الثاني كان يطلب راحة نفسه . ويقال : انه في زمانه ما اشتغل يوما بشغل واحد . وينبغي للملك ان لا يباشر الحرب بنفسه ، ويحفظ ناموسة ، ولكن كثيرا من الارباح يتعلق بروحه ، وصلاح الرعية في حياته . ومن الامثال السائرة : الجوهر لا يصارم . وكذلك ينبغي ان لا يجور على نفسه لئلا يجور على غيره . ويجب ان يحترس وينام على فراشه غيره كل ليلة كما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة الغار . قيل ان بهرام ابن حشروا لما هرب وعسكره خوفا ان يصل قصره وعدوه اليه فقبل له : لا ينبغي للملك ان يهرب لئن همته جيدة متعلقة بهمته . فقال : لم أهرب الا لأخلص جماعة من اصحابي لاني لو هلكت لهلك بي طائفة من الخلائق ، فينبغي للملك بعهد أحوال عماله ورعاياه ، ولا يرضى ^(٤) لهم بالظلم .

(٣) هكذا الأصل والمقصود « حوائج » .

(١) هكذا الأصل .

(٤) هكذا الأصل والأصح « لا يرضى » .

(٢) هكذا الأصل .

الحياة الفكرية والقضاء في عصر المماليك :

على الرغم من التفكك السياسي والاختلاف المذهبي الذي عانت منه الدولة الإسلامية برمتها ، فإن الحياة الفكرية في مصر بصفة خاصة ؛ قد انتعشت إلى حد كبير نتيجة لتنافس الفرق المختلفة والمذاهب المتعددة ، مما نتج عنه ثراء فكري سياسي متميز شهدته مصر في العصور الوسطى ، بدليل أن المفكرين المسلمين قد أقاموا مراكز اشعاع فكري ، وكان للخلفاء والحكام دورهم في إثراء الحياة الثقافية في العصور الوسطى ، واهتموا بعلماء المسلمين ، وتنافست العواصم الإسلامية في القاهرة وبغداد ودور العلم ودور الحكمة لتأصيل الثقافة الإسلامية ، وصقلها ، ومن ثم كانت النهضة العلمية والثقافية التي اتسمت بها الحياة الفكرية في العالم الإسلامي وقتئذ .

ومن منظور تاريخي فإنه قد أخذ بمبدأ استخدام المماليك ولاية مصر الإسلامية من الطولونيين إلى الاخشيديين ثم الفاطميين - ولما آلت السلطة إلى الأيوبيين ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م نهجوا نفس السبيل وأكثروا من شراء المماليك الترك ، وبنيت لهم التكنات بجزيرة الروضة ، وأطلق عليهم اسم « المماليك البحرية » . ومنحت لهم الفرصة بعد ذلك في تولي الحكم في مصر .

ويعد السلطان قلاوون ٦٧٩ هـ / ١٢٧٩ م من أعظم^(١) سلاطين دولة المماليك حيث كون فرقة جديدة من المماليك ، كونها من الأرمن والجر كس ، وعرفت تلك الطائفة باسم « الجراكسة » . وكانت الغالبية العظمى من المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم إلى مصر تأتي من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر ، فكانوا خليطاً من الأتراك والجرაკسة والروم والروس والأكراد ، فضلاً عن أقلية من مختلف البلاد الأوربية .

والمماليك عبارة عن طائفة من الأرقاء المشتريين بالمال ، ثم كثر عددهم وحكموا مصر ، ووضعوا أيديهم على بلاد أخرى خارج مصر ، واحتفظوا أثناء حكمهم لمصر بشخصيتهم ولم يختلطوا بأي عنصر من سكان مصر .

وقد انقسم المماليك فيما بينهم إلى أحزاب متطاحنة ، غير أن هذا الانقسام الداخلي لم يؤثر على وحدتهم كطائفة أو مجموعة إزاء العالم الخارجي الذي كانوا يواجهونه كعصبية واحدة وهذا يفسر قوتهم وانتصاراتهم الحربية في مواجهة العدو المشترك .

وكان باب الترقى في حكومة المماليك مفتوحاً أمام من تثبت كفايته في العمل ، فيترقى من مملوك بسيط إلى أمير حتى يبلغ عرش السلطنة ، ولم يكن السلطان إلا واحداً من أمراء المماليك قدموه

(١) راجع في تفصيل ذلك : دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، القاهرة ، دار النهضة المصرية ، ١٩٧٦ ، ص ١٩٢ - ١٩٧ .

فعندما سقطت بغداد وتلاشت هيئة الخلافة تدريجياً ، ظهرت صحوة في الأقاليم الاسلامية ، وقامت الحكومات اللامركزية (١) وتنافست من أجل الابقاء على الحكومة الاسلامية ، فكانت محاولات المماليك بالابقاء عليها .

وفي إطار الجهود المبذولة لإلقاء الضوء على المخططات المملوكية في هذه الفترة ، فقد اقتضت الأمانة العلمية كباحث أن أتبع مجموعة الوثائق في العصر المملوكي بالمتحف البريطاني في لندن ، ومكتبة جامعة كامبردج بانجلترا ، وأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة ، ودار الوثائق القومية بالقلعة للوقوف الى أى من المخطوطات يتعلق بالأدب السياسي في هذه الفترة ، فلم أعر على أى مخطوط عن الأدب السياسي المصري في فترة حكم المماليك ، وانما توجد وثائق هامة أخرى تليق الضوء على تاريخ مصر في عصر المماليك وتصور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، وأهمها وثائق الاستبدال والبيع (٢) .

ورغم خطورة الاعتماد على أصل واحد في التحقيق ، ورغم ما يكتنف العمل فيه من صعوبات ومشاق ، فاني رأيت أن الوقت قد حان لاجراج هذا المخطوط الى النور . ذلك أنه يمثل مصدراً خصباً وغنياً بالمعلومات الأولية لعصر المماليك وتفسير ظاهرة السلطة في مصر في مطلع القرن السادس عشر الميلادي ١٥٠١ - ١٥١٦ م .

وتجدر الاشارة إلى أن الغموض لا يزال يكتنف المؤلفات التاريخية العربية في فترة حكم المماليك عموماً ، وخاصة فيما يتعلق بتطور الفكر السياسي وتفسير ظاهرة السلطة والأحوال السياسية .

الخامس عشر حتى بداية القرن العشرين وتشمل نشأة الدولة العثمانية وطابعها بما تحويه سلطة الدولة من ضرب القوى الشعبية وأخيراً تأتي المرحلة الحديثة والمعاصرة والتي يطلق عليها المرحلة القومية . راجع في تفصيل ذلك دكتورة فتحية النبراوى ، دكتور محمد نصر مهنا ، تطور الفكر السياسي في الاسلام ، الجزء الثاني ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٨٤ ، ص ١٥ - ١٨ .

(٢) ومن أمثلتها الوثيقة رقم ٥٩ بتاريخ ٢٠ رجب ٩١٢ هـ ، ووثيقة بيع بتاريخ ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ في دار الوثائق القومية بالقاهرة ، وراجع أيضاً الدكتور محمود عباس حموده ، المدخل الى دراسة الوثائق العربية ، القاهرة ، دار الثقافة ١٩٨٠ ، ص ١٩٨ - ٢١٣ .

(١) استمرت مرحلة اللامركزية في تطور مراحل النظام السياسي الاسلامي - ستة قرون وسبقتها ثلاثة مراحل ولحقها مرحلتين : أما الثلاثة مراحل السابقة على مرحلة اللامركزية فهي : المدينة الدولة ١ هـ / ٦٢٢ م - ١١ هـ / ٦٣٢ م وهي أهم مراحل تاريخ الفكر السياسي الاسلامي حيث حكم الوحي سلوك المسلمين وحدد لهم قيمهم الجديدة ، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الدولة الامبراطورية ١١ هـ / ٦٣٢ م - ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ، وتشمل عصر الخلفاء الراشدين حيث بدأت الأمة الاسلامية تواجه مشكلاتها السياسية ، وتوجد الحلول المناسبة لها وذلك بعد انقطاع الوحي وغياب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، والمرحلة الثالثة هي فترة الدولة العباسية . ثم المرحلة التي تدخل فيها دراسة هذا المخطوط وتليها المرحلة الخامسة التي يطلق عليها مرحلة التفتت وتمتد منذ نهاية القرن

الخاصة بالنسخ والنقل وقد كتبه^(١) المملوك برد بك ، من طبقة المستجدة الملكي الأشرفي .
والمؤلف مجهول .

وقد التزم الناسخ عبر صفحات المخطوط بخاصية هامة ، وهي الحفاظ على التنسيق طوال صفحاته التسع عشر ، غير أن الناسخ قد نسي أو أغفل وضع التاريخ الهجري ، والشئ الوحيد الذي ذكره الناسخ في نهاية المخطوط هو هذه العبارة : « برسم خزانة مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغوري أعز نصره » . وتأسيسا على ذلك تكون هذه المخطوطة من نسخ مطلع القرن السادس عشر الميلادي .

وترجع أهمية هذا المخطوط النادر – من وجهة نظري – الى الفترة الزمنية التي حكمت فيها مصر من جانب المماليك الجراكسة ، في عهد السلطان قنصوه الغوري ١٥٠١ – ١٥١٦ م^(٢) .

هذا المخطوط في الأدب السياسي المصري يلقي الأضواء حول تفسير ظاهرة السلطة وتطوراتها خلال مراحل تطور الفكر السياسي الاسلامي الذي شهد فترات من القوة والضعف غير أنها – أي ظاهرة السلطة – بقيت من حيث النظرية كما هي ، ولم يخرج فقهاء المسلمين في تعريفاتهم لظاهرة السلطة عن الفكرة المثالية التي ظهرت بها في صدر الاسلام . ومع ذلك فقد حاولوا تطويع الفكر لختلف الظروف التي عايشوها . فكان للمسلمين من أهالي البلاد المفتوحة ومن دخلوا في الاسلام ، إنجازات حضارية عظيمة أسهمت في تأصيل الفكر السياسي الاسلامي ، غير أن الفرصة لم تسنح لذلك الفكر في أن يبدي ويحدد فكان تطبيقه بشكل مختلف عما أراده له مفكروه وواضعوا أسسه ،

الجيش من المناشير وما يكتب من ديوان الوزارة وديوان الخاص وغيرها» . راجع : القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، جزء (١) ، القاهرة ، نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي ، بدون تاريخ إصدار ص ٥٤ ، ٥٦ ، ٩١ ، ١٢٨ .

(٢) وقد أعقبه طومان باي الثاني ١٥١٦ م – ١٥١٧ م وكان هذا الأخير آخر سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، وتنقسم سلاطين دولة المماليك الى : سلاطين دولة المماليك البحرية وسلاطين دولة المماليك الجراكسة وتضم الأولى السلطنة المملوكية حتى الناصر محمد ، ثم عصر الناصر محمد ، ثم أولاد الناصر محمد وتشمل هذه الفترة من ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م – ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م ، ثم أحفاد الناصر ، وتضم الثانية سلاطين دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢ م – ١٥١٧ م) .

(١) ازدادت أهمية الكتابة في عصر الأيوبيين ثم في عصر المماليك عما كانت عليه في العصور السابقة حيث أولى السلاطين المماليك عنايتهم للديوان وأناطوا وظائفه الى القضاة والكتاب الاكفاء . راجع دكتور عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة بدون تاريخ إصدار ، ص ٣٥ . ويروي القلقشندي (عصر المماليك) ويشرح هنا أهمية أصحاب ديوان الانشاء – أي الكتابة – قائلا : « ومرتبته في زماننا أرفع مرتبة ومحلّه أعظم محل ، إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها ، وبرأيه يستضاء في مشكلاتها ، وعلى تدبيره يقول في مهماتها ، وإليه ترد المكاتبات ، وعنه تصدر ، وفي ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ، ويقوم توقيعه على القصص في نفوذ الاوامر مقام السلطان ، وجميع ما يعلم عليه السلطان ، ومن جليل وحقير في مزرته حتى ما يكتب من ديوان

